# فن السيرة الذاتية عند ابن خلدون

**د. ليلى شعبان شيخ محمد رضوان**
قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الدمام

دوَّن ابن خلدون حياته في كتاب، ينتمي إلى ما نسميه اليوم بالسيرة الذاتية أو الترجمة الشخصية، وَسَمَه بـ: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا(١)، ونقف فيه على أصول هذا الجنس الأدبي، المستحدث مفهومًا ومصطلحًا، في التراث العربي، بوصفه صاحب النص التأسيسي الأول المتمثل لمفهوم السيرة الذاتية وإشكاليتها وقضاياها من ناحية، وبوصفه أول المستفيضين في الكتابة عن أنفسهم من ناحية أخرى(٢).

(قدم للنشر في ١٤٣١/٥/٢٠هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٢/٤/٩هـ).

(١) عرف هذا الكتاب كجزء تابع لتاريخ ابن خلدون، وما كان ليفصله عن بقية أبواب الكتاب إلا عنوانه: التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب. ولم يكن اسم الإشارة "هذا" إلا نداء مدويًا يرغمك على الاعتراف بتبعية هذا الكتاب لبقية كتاب "العبر". وظل العنوان بهذه الصورة حتى عظُم حجم الكتاب بما أضيف إليه من جديد الأخبار، فحذف ابن خلدون عبارة "مؤلف هذا الكتاب"، وأضاف إلى بقية العنوان عبارة: "ورحلته غربًا وشرقًا"، فكملت بذلك الصياغة الأخيرة للعنوان. انظر: **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقًا**: عبدالرحمن بن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٥١م، الصفحة الأولى من دون ترقيم.

(٢) يقر صالح الغامدي بصعوبة تحديد تاريخ دقيق لظهور أول سيرة ذاتية كتبت في الأدب القديم، ومرد هذه الصعوبة إلى أن النصوص=

فالكتابة عن الحياة الشخصية أو رواية حياة المؤلف بقلمه تحدد وجهة نظر صاحب السيرة راويًا وساردًا في آن واحد، وهي تمثل السيرورة الفردية ضمن سياقها العام، فالسارد ينتج حياة أخرى، يجدر بنا تسميتها بالحياة النصية. فما مفهوم السيرة الذاتية لدى ابن خلدون؟، وهل هيأ لها من العناصر الفنية ما يقربها من السيرة الذاتية بالمفهوم الحديث؟، وما الإشكاليات الفنية التي يطرحها هذا الفن لديه؟ وما مقوماته الفنية؟

## تقديم:

إن المؤرخ كثيرًا ما يتفاعل مع أحداث معينة، ويحكي بضمير المتكلم قصة تفاعله الشخصي مع هذه الأحداث بعد انقضائها عبر تقديم اعترافات وتصريحات عن أناه وتفاعلها مع الأحداث، فتقترب من حيث انتظامها البوحي من القالب السير ذاتي؛ لانجلائها عن تجربة ذاتية في الحياة السياسية والاجتماعية في دول متعددة. وتتبنى هذه العملية على مؤشرين: الحاضر الذي يبحث على الاستذكار والعودة إلى الخلف. وينطلق هذا المؤشر من لحظة الكتابة نفسها، ولعلها تستند إلى قرار واع بإحياء فترات أسبق من الوجود عن

= المبكرة التي يمكن أن تصنف كذلك وصلت إليها في شكل رسائل أو صور ذاتية مضمنة في كثير من كتب التراجم والطبقات، أضف إلى تردد آراء النقاد والدارسين واختلافهم حول طبيعة السيرة الذاتية ومكانتها، بل حتى وجودها في الأدب العربي القديم، غير أنه يسلم مع وجود هذين العائقين، بأن من الصعب إنكار وجود السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، ويُعد أول نص سير ذاتي وصل إلينا تاريخيًا هو لحنين بن إسحق. السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، نحو تأطير جنس أدبي، **مجلة علامات في النقد**، (أيلول ١٩٩٤م).

طريق الاستحضار، ولذلك نجد أن ما يستحضره ابن خلدون هو جملة الوقائع والمشاهد والتجارب التي مرت بها حياته، والماضي الذي تختزنه الذاكرة، وتستحضره، وهذا الاستحضار يشوبه عطل لذلك كان يشير باستمرار إلى انخرام الذاكرة.

تداخلت السيرة والرحلة في كتاب ابن خلدون، لكن رحلته كانت طوعية، لذلك غلب المنحى التاريخي على المنحى الغنائي، وإن لم نعدم بعض خلجات نفسه في سياقات متنوعة، ترسم ملامح اغترابه أحيانًا، وتنمي الشعور بالانكسار الذاتي الفادح أحيانًا أخرى.

قدم ابن خلدون نفسه في سيرته ضمن محددين اثنين هما: العلم والسياسة، وصوّر التجربة الحية الصادقة التي عاشها في نطاق المجتمع، متصلة بالأحداث العامة، منعكسة عنها ومتأثرة بها، وتتبع مراحل حياته وتقلبه في المناصب إلى قبيل وفاته بقليل.

وقد كان لشخصيته القادرة على الاتصال والانفصال، أو التغلغل والتحليق بعد نفسي، أثار جدلاً كبيرًا، فكتب سيرته من وجهة نظره، ليقدم نفسه كما رآها هو، مسوغًا لسلوكه ضمن إطار تاريخي، فحدَّد بذلك دوافعه التي تتلخص في الدفاع عن نفسه، فظهرت أناه بوضوح، فكان ساردًا للأحداث، معززًا الوقائع بإثبات التأريخ، معلنًا أسماء الشخصيات التي عاصرها، والأماكن التي شكلت فضاء تحركاته، فأضفى على ما كتبه الواقعية والصدق.

صاغ ابن خلدون سيرته الذاتية بأسلوب واضح ولغة سامية، توافر لها سلاسة السرد القصصي، فكانت لغته عونًا له في إعادة الماضي وبعث الحياة في تجاربه، فكشف عن تحول مسار شخصيته من الطفولة إلى الشباب، ثم الكهولة، فالشيخوخة، وعني بعنصري الزمان والمكان، وأثبت بعض الرسائل، فكانت سيرته "أقرب التراجم الذاتية إلى الترجمة الذاتية الأدبية بمعناها الحديث، لأنه توافر فيها أكبر قدر من المنفعة إلى جانب تصوير ما نستدل منه على السمات المميزة لشخصية صاحبها، وعلى مدى التطور الذي طرأ عليها، وما دار في نفسه من ألوان مختلفة من الصراع مع مهارة في السرد الأدبي الذي يعتمد كثيرًا من عناصر الفن، وعلى الدقة والوضوح والسهولة والعذوبة، ويعتمد أيضًا على قدرٍ من الترابط في أجزاء كل ترجمة ذاتية، مما يجعلها عملاً يقوم على وحدة البناء في أكثر أجزائه"(٣).

وهذه عوامل تحقق المتعة الأدبية، وتثير التعاطف الوجداني بين ابن خلدون ـ كاتب الترجمة الذاتية ـ وقارئها، ويدعوه إلى المشاركة في تجاربه ومشاعره، ويحمله على التدخل لتغيير مساره إذا ما تعثر، ولا يقلل من قيمة هذه السيرة، أنه خرج على واقعه الذاتي، حين تناول أحداثًا وشخصيات خارجية، وأثبت رسائل وأشعارًا مطولة، إذ إن هذه الاستطرادات لم تكن عبثًا، بل أسهمت في إضاءة الجانب العاطفي الذي لم يكن واضحًا في تلك السيرة.

(٣) **الترجمة الذاتية في الأدب العربي**، يحيى عبدالدايم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص٣٩.

إن كلمتي السيرة الذاتية والترجمة الشخصية تترادفان في التراث الأدبي عند العرب، وتدوران على معنى "تاريخ الحياة"، إذ اتخذ التأريخ للفرد صورًا مختلفة لديهم، وكانت السيرة أولى هذه الصور، وعنت حياة الرسول الكريم ﷺ(٤)، ثم تعددت أنواع التأريخ للأفراد بعد ذلك، فكان الجرح والتعديل والطبقات، ثم التراجم في العصور المتأخرة، بمعنى أن السيرة ظلت عصورًا يقتصر استعمالها على بيان حياة الرسول ﷺ، ثم تطور الاستعمال في عصور تالية، فاستعملت بمعنى حياة الشخص عامة(٥).

أما كلمة الترجمة فلم تستعمل إلا في أوائل القرن السابع الهجري حين استخدمها ياقوت في معجمه بمعنى حياة الشخص، بينما استعمل أبو الفرج الأصفهاني كلمة خبر عند كلامه على حيوات الشعراء، وعلى مرّ العصور نجد أن كلمة ترجمة يجري الاصطلاح على استعمالها لتدل على تاريخ مدوَّن لحياة شخص ما.

وإذا كان القدماء يفرقون في الاستعمال بين اللفظتين، فإن الاصطلاح الحديث لا يفرق بينهما، بل يستخدم إحداهما مرادفة للأخرى، ومن ثم جاء الاصطلاح المعاصر الترجمة أو السيرة الذاتية(٦)، وهو فن حديث نسبيًا، بل لعله أحدث

(٤) **الفهرست**، ابن النديم، نشر فلوجل، ليبزغ، ١٨٢٢م، ص٩١.

(٥) **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، وكالة المعارف، إستانبول، ١٩٤١م، ٢/١٠١٥.

(٦) **معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب**، كامل مهندس ومجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص٩، ٢٠٥.

الأجناس الأدبية[٧]، ويشكل نوعًا خاصًا من السيرة من حيث هو "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"[٨]، فهي حياة تعاد؛ إذ إن "المرء يدوّن تاريخ نفسه فيسجل حوادثه وأخباره ويسرد أعماله وآثاره ويتتبع مسيرة حياته طفلاً وشابًا وكهلاً، وما جرى من أحداث، في إطار من السرد المتسلسل، وتتأرجح السيرة الذاتية بين الأدب والتاريخ، فهي فن أدبي، ولكنه كالمسرحية التاريخية مرتبط بأساس تاريخي، وببعض معلومات شائعة عن العصر والزمان والمكان لا يمكن للمسرحي أن يتخلص منها"[٩]، فهي تاريخ في حاجتها للتحري والصدق، وفي اعتمادها على الوثائق والمدونات، وهي كالتاريخ بما تضج به من أحداث، لكنها تفارقه في أنها تركز على شخص واحد، تدور حوله الأحداث. "وكلما كانت السيرة تجتزئ بالفرد وتفصله عن مجتمعه، وتجعله الحقيقة الوحيدة الكبرى، وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون واهية ضعيفة"[١٠].

(٧) **السيرة الذاتية**، جورج ماي، ترجمة: عبدالله صولة ومحمد القاضي، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٢م، ص٢١٩.

(٨) **السيرة الذاتية**، فيليب لونجون، ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ١٩٩٤م، ص٢٢.

(٩) فن كتابة السير: تاريخ هو أم أدب، سهير القلماوي، **مجلة العربي**، عدد ١٧، (نيسان ١٩٦٠م)، ص٥٤.

(١٠) **فن السيرة**، إحسان عباس، ط٥، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ص١١.

وتفارق السيرة الذاتية السيرة الغيرية في أهم عنصر وهو السارد، حيث يتم التطابق بين الراوي والشخصية الرئيسة في الأولى، وينعدم في الثانية[١١]. وكاتب السيرة أعلم بنفسه وانفعالاته وخلجات قلبه وسبر أغوار ذاته، لذلك تغلب عليها النظرة الذاتية إلى كل ما يحيط بتلك النفس. لذلك هو شاهد وقاضٍ معًا[١٢].

## التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا؛ سيرة ذاتية

دوَّن ابن خلدون سيرته الذاتية[١٣] التي تشكل الجزء السابع من تاريخه، وهو نص (التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا) الذي ذيَّل به كتاب العبر، ونقحه مرارًا، وأضاف إليه ما استجد من أحداث، فوصل إلى نهاية عام سبعة وثمانمائة للهجرة، أي إلى قبيل وفاته بشهور، وأثارت سيرته إشكالاً يتعلق بطبيعتها ؛ إذ يخيل للدارس أن ابن خلدون ذهب مذهب المؤرخ والباحث أو الشاهد على العصر وكاتب الرحلات، فتضاءلت سلطة الذات في سيرته إلى حدٍّ بعيد، وتوارت في ألفاف الأحداث التي أثقلها بما هو عام، وعرضها من وجهة نظر شخصية ورؤية ذاتية، فكانت مواضيع عامة، خبا فيها

(١١) **سيرة الغائب، سيرة الآتي، السيرة في كتاب الأيام لـ طه حسين**، شكري المبخوت، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢م، ص١٦.

(١٢) **أدب السيرة الذاتية**، عبدالعزيز شرف، الشركة المصرية العامة للنشر، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٢١٩.

(١٣) كتب ابن خلدون التعريف سنة ٧٩٨هـ، وأضاف نص الخطبة التي ألقاها يوم جلوسه للتدريس في المدرسة القمحية في القاهرة سنة ٧٨٤هـ، والخطبة التي قالها حينما بدأ التدريس في المدرسة الظاهرية سنة ٧٨٧هـ.

ألق الحياة الخاصة، واقتربت من فن المذكرات، وكتابة الرحلات، ولكن المتأمل فيها، يضعها في إطارها الزماني، ولا يحكم عليها بمقاييس هذا الفن بعد أن استوى فنًا مكتملاً.

ولكن نظرة ثاقبة في سيرته في مقاربتها من فن السيرة الحديث، تحملنا على القول: إن ابن خلدون أول "باحث عربي يكتب عن نفسه ترجمة رائعة مستفيضة، يتحدث فيها عن تفاصيل ما جرى له، وما أحاط به من حوادث"[١٤] على امتداد حياته. وقد صنّف الباحثون كتاب التعريف ضمن كتب السيرة الذاتية حين عرضوا لهذا الفن سريعًا في أثناء دراستهم لبعض الجوانب الفكرية لدى ابن خلدون[١٥].

فكتاب التعريف ينضوي تحت عنوان السيرة الذاتية، ضمن إطار سياسي تاريخي وفكري، لأن صاحبها عاش أسير هاتين النزعتين المتضادتين فقدم نفسه فرعًا زاكيًا لأصل مشرقي، يحمل إرث جده الوافد على رسول الله ﷺ[١٦]، وتتبع المؤثرات المهمة التي أسهمت في تكوينه الخلقي والروحي والفكري، والشخصيات التي تركت طابعها على شخصيته، فكانت طفولته جادة صارمة لا تعرف ألوان الهزل والمرح، وهذا ما أكده من خلال ذكر سلسلة شيوخه الذين

---

(١٤) **عبقريات ابن خلدون**، علي عبدالواحد وافي، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٤م، ص٢١.

(١٥) للاستزادة انظر: **الترجمة الشخصية**، شوقي ضيف، ص١٠٠؛ فن **السيرة**، إحسان عباس، ص١٣٣؛ **السيرة الذاتية في الأدب العربي**، تهاني شاكر، ص٥٨.

(١٦) **التعريف بابن خلدون**، ص٢.

درس عليهم، وتأثر بنوازعهم، وذكر صفاتهم وكل من أثر فيه من قول أو فعل، والتزم الحقيقة التاريخية فيما ينقله من أحداث.

يستهل ابن خلدون سيرته بعقد ميثاق السير ذاتي المعلن، ويؤكد علاقة التطابق بين الأطراف الرئيسة الثلاثة التي تؤسس السير الذاتية، وهي السارد والمؤلف والشخصية، فيرفع الإشكالية المتعلقة بجنس السيرة، فهو يتحدث عن نفسه مباشرة مستعملاً ضمير المتكلم، فيقلص المسافة بينه وبين القارئ، ويتحدث إليه مباشرة، وإذا ما تنحى قليلاً فلكي يستجمع أبعاد شخصيته من راو آخر يخاطبه، فيرد عليه بما يلقي أضواء كاشفة على شخصيته، كما هي الحال مع لسان الدين ابن الخطيب(١٧)، لتكتمل أحداث حياته بما استرجعه من أحداث، فهو يقدم حياته قصة كاملة، ويرهن قيمتها بما هو جدير بالمعرفة، إذ امتص ثقوب الذاكرة، وتراجع معها وبها إلى أعمق أعماق البدايات، ولم يخضع سيرته للانتقاء، لأن كل حدث فيها كان يراه جديرًا بالمعرفة، لإحساسه أن ما قدمه من علوم قد صرف القارئ عن صور حياته التي تدرجت به بين الروح والمشغلة، وبين الهدوء والقلق، كما صرفته عن عوامل هذه الحياة المستقرة في باطنه والمحيطة به في مجالات عيشه، التي قذفت به إلى مجاهل الحياة يبلو حلوها ومرها، وأثارت عليه الغرائز الإنسانية بين الإعجاب والرغبة في استغلال مواهبه، وبين الحسد له والائتمار عليه. هذا كله دفعه إلى الإحاطة بجوانب حياته، وجعل العلم والسياسة ميدانين مهيمنين هيمنة كلية على سيرته، وخلال تأرجحه بين هذا

(١٧) السابق، ص٨٢، ٩١، ٩٢.

وذاك، كشف عن بعض الأحداث الشخصية، والصفات النفسية الخاصة، وصوّر جوانب مهمة من أحداث الحياة في العصور الوسطى، لهذا لا نستطيع أن نفهم سيرة ابن خلدون بمعزل عن إطارها التاريخي، والمفهوم العام للكتابة التاريخية والترجمة الشخصية في ذلك الزمن، ولاسيما أن مؤلفها كتبها بعد أن عمت شهرته الآفاق، مما جعل سيرته قادرة على إثارة فضول القراء، ليعرفوا ما خفي من حياة هذا المفكر العظيم، وأن يجدوا أجوبة لأسئلة طرحتها مؤلفاته التي قرؤوها.

## دوافع كتابة السيرة الذاتية عند (ابن خلدون):

لا يمكننا أن نحدد دوافع كتابة السيرة الذاتية عند ابن خلدون بمعزل عن المرحلة التاريخية التي عاشها، أو بمعزل عن دوافع نفسية رتبت سلم الأولويات، وجعلت الغاية النفعية أولى هذه الأولويات.

رسم ابن خلدون لنفسه صورة أراد أن يتصوره عليها الناس "تأنق في صنعها، واستمسك بظلالها وألوانها"[١٨]، آملاً إخفاء بعض عيوب نفسه التي رآها فيه معاصروه[١٩]،

(١٨) المصدر السابق، مقدمة المحقق، الصفحة الأولى من دون أرقام أو رموز.

(١٩) كان معاصرو ابن خلدون يأخذون عليه عدم الوفاء لأحد، وتعجبوا لتوليه القضاء في مصر، كذلك عرف بعدم صدق الولاء، وخاصة أنه اضطلع بدور خطير في الأحداث السياسية في المغرب العربي، وكان لا يتردد في خيانة ولي نعمته والانضمام إلى أعدائه إن وجد مصالحه تتفق وسلوك ذلك الطريق. **المدخل إلى التاريخ**، نور الدين حاطوم، وآخرون، ص٣١٧؛ **عباقرة الفكر في الإسلام**، عمر أبو النصر، بيروت، ١٩٧٠م، ص١٤٦.

وصوروه كما أرادوا أن يراه الناس، فالتقط معالم تلك الصورة "وأنكرها في ألم وترفع"[٢٠]؛ لأنه صُوِّر رجلاً انقلابيًا شارك في الانقلابات، لا يردعه ولاء، فتنكر الناس له حتى صديقه ابن الخطيب، وفي مصر ولي القضاء، وعزل عنه عدة مرات، مما أثار شكوك الناس في سلوكه.

ولعل الناظر إلى هذا التقلب في حياته، يدرك أن العيب في شخصه لا فيمن حوله، هذا دفعه ليقول رأيه في تلك الصورة، فكتب سيرته منتصفًا لنفسه، أبان فيها عن وجهه الماثل في مرآة ذاته، لا الوجه الحقيقي له، ليدفع الاتهام والريبة عن تصرفاته، وربما كان وراء ذلك كله "غاية من التبرير والتفسير"[٢١].

عاش ابن خلدون متنقلاً من بلاط إلى آخر، متأرجحًا بين حياة العلم ودنيا السياسة، جامعًا بينهما أحيانًا[٢٢]، وإلى هذين العنصرين متداخلين، يرجع كثير من ملامح شخصيته، ومن نشاطه في هاتين الناحيتين ترتسم الخطوط الكبرى في حياته، وبهما يتسم مسلكه فيهما بوجهيه المادي والمعنوي.

أراد ابن خلدون أن يقول قولاً حاسمًا يتعلق بحياته، وأن يرد بشكل غير مباشر ما اتهم به، وكان أن وجد في سيرته فضاءً رحبًا لحسم مواقفه بعد أن غلبته أمواج الحياة، وألقت

(٢٠) **التعريف بابن خلدون**، مقدمة المحقق، الصفحة الأولى، من دون ترقيم.

(٢١) **فن السيرة**، إحسان عباس، ص١٣٣.

(٢٢) **التعريف بابن خلدون**، ص٩٨.

به على ضفاف الموت. فكتب معتذرًا، ومسوغًا، ومفسرًا، لينصف نفسه أمام التاريخ، وليسوغ ما جرى له من زاوية ذاتية، فأوحى للآخرين أنه لم يكن خوَّانًا، لأن مفهوم الخيانة مقصور على حقل الدين، وهو كان يخدم سيدًا أو مالكًا وليس وطنًا، فهو لا يفتأ يسوغ لنفسه هوانها، ويرى أن الإنسان لا يستطيع أن يجمع في نفسه كل الصفات الحسنة كما يشاء، فالإنسان يستمد أخلاقه من المجتمع الذي يعيش فيه، والمجتمع بدوره خاضع في أخلاقه للأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تحيط به. فالأخلاق في رأيه مألوفات وعادات اجتماعية لا تخضع للإرادة الفردية، أما الفرد الذي يحاول مخالفة المجتمع في عاداته، فإن مصيره الفشل والهوان، والفرد مضطر إلى أن يجاري العادات السائدة على ما هي عليه في محاسنها ومساوئها.

هذه جملة مبادئ وضعها في المقدمة(٢٣)، وطبقها في حياته لذلك يمكننا القول إن سيرته تساعد على فهم مقدمته وتحديد مداها، وعلى الأسس النظرية التي بنى آراءه عليها من بعض الوجوه، كما تصلح سيرته لأن تكون إيضاحًا شعريًا لمقدمته التي هي مدخل حقيقي لدراسة التاريخ، مما يضع غاية إثبات الوقائع التي ذكرها في تاريخه أحد دوافع كتابة السيرة لديه(٢٤).

(٢٣) **المقدمة**، الجزء الثاني بأكمله.

(٢٤) **الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة**، أنيس المقدسي، ط٢، د. ن، بيروت، ١٩٧٨م، ص٧٥٧.

ولم تخل سيرته من غرض آخر "هو تصوير تلك الشهرة العريضة والمنزلة الرفيعة التي نالها في الحياة السياسية والاجتماعية"(٢٥)؛ محاولة منه لإضفاء أهمية على نفسه التي تغلغلت في دقائق الحياة وتعمقتها، واستطاع أن يسمو عليها، ويحلق فوقها، فرآها في صورة مجتمعة الأجزاء، فتبين الأسباب العاملة فيها. وربط بين هذه الأسباب والظواهر التي نشأت وطبعت الحياة بطابعها.

ونرجح أن عنوان السيرة الذاتية عند ابن خلدون الذي صدَّره بالتعريف، يرتبط مع الغاية التي رمى إليها، لأنه لو أراد شيئًا آخر لوسم مؤلفه بعناوين شتى، ولاسيما أنه عارف باللغة، لا تعوزه المعرفة اللغوية، فهو أراد تقديم نفسه مستندًا إلى حقائق التاريخ وواقعية الشخصيات ليعوِّض مجدًا لم ينله، لذلك بدأ الحديث عن نسبه ومشيخته بما يوحي بشغف في إثبات الذات، ورغبته في استحضار حياته، واستعادة ماضيه، لأن العودة إلى الماضي تعيد إلى نفسه صلابتها التي عرف بها، فكانت نوعًا من العلاج النفسي لمقاومة العجز والانكسار.

فهو يذكر أنه واجه الحياة بشرورها وحروبها وطاعونها وحيدًا بعد فقد مشيخته ووالديه(٢٦)، فاتخذ العلم مسربًا له نحو الحياة ليؤكد ذاته في كل مرحلة، وأن يقنعنا أن حياته التي عاشها تستحق أن تروى، فتغدو سيرته "غرضًا مقصودًا

(٢٥) **فن السيرة**، إحسان عباس، ص١٣٣.

(٢٦) **التعريف بابن خلدون**، ص٥٥.

لذاته"[٢٧]. إن شعور ابن خلدون بذاته يتنامى، ويتعمق كلما أوغلنا في البحث في سيرته، فهو حين وجد نفسه في مهب الريح يعزل ويولى ويعزل[٢٨]، استحضر ماضيه، وواجه حاضره به، فذكر نزوله (بجاية) واحتفال السلطان بقدومه، وتهافت أهل البلد عليه من كل حدب وصوب يمسحون أعطافه ويقبلون يديه[٢٩]، لكن ظلال الحاضر تهيمن على فعل الكتابة، وتلونه بمسحة من الكآبة، تبدو آثارها على نفسه حين قال: "ووقع الإنكار علي ممن لا يدين للحق ولا يعطي النصفة من نفسه"[٣٠]. ولم يمح كآبته ما استحضره من رسائل صديقه وخصمه ـ في آن معًا ـ لسان الدين ابن الخطيب، التي تحمل له عبارات التبجيل[٣١]، وكأنه جعل من تلك الرسائل صوت الآخر الحاكي فضائله، ليعزز تأكيده لذاته، ويحفظ هويته، ويعطي لسيرته شرعية، ويؤسس لها أخلاقية سياسية قادرة على تبرير منعطفاتها.

هكذا عبر ابن خلدون عن معنى وجوده الذي لا يمكن أن يفهم خارج نطاق السياق التاريخي للمرحلة التي عاشها، وذلك لأنه عندما كتب تلك السيرة المليئة بالأحداث السياسية والاجتماعية الكبرى من مثل تقلبه في المناصب والقصور،

(٢٧) **النقد والحداثة**، عبدالسلام المسدي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣م، ص١١٤.

(٢٨) **التعريف بابن خلدون**، ص٣٨٣.

(٢٩) السابق، ص٩٧-٩٨.

(٣٠) السابق، ص٣٨٣.

(٣١) السابق، ص٨٢-٩١.

وما أصابه من مرارة الاعتقال، لم يقتصر على سرد الأحداث، بل ربط الأحداث الشخصية بأحداث عصره، وتقلبات النفس البشرية، وتخلل ذلك شروح وتعليلات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية[٣٢].

هذا يؤول بنا إلى القول ما دامت سيرة ابن خلدون تسويغًا لآرائه ومواقفه، واعتذارًا عن أخطائه، فإن هذا التسويغ لا يمكن أن يكون محايدًا ولا موضوعيًا. بل هو رهين فكره ووضعه وظروفه ومنطقه ومواقفه التي أثارت عليه الخصومات. ويعضد التسويغ بالدفاع عن ذاته، وربما كان هذا الدفاع: "أقوى عناصر الترجمة الذاتية وأعظم الحوافز على كتابتها"[٣٣]؛ فسلك في الذود عن نفسه سبلاً من التفسير والتعليل والتحليل للمواقف والأحداث والوقائع.

## الخصائص الفنية للسيرة الذاتية عند ابن خلدون:

### أ - بناء السيرة الذاتية عند ابن خلدون:

لاشك أن صفة المؤرخ طبعت سيرة ابن خلدون بسمات التأريخ، واشتبكت به، فهي تدور حول إنسان له ما له من تأثير في الحياة الاجتماعية والسياسية، وارتبطت حياته بحياة آخرين حكموا البلاد وسيَّروها زمنًا، ولكنه استطاع أن ينزع تاريخه الفردي من حياة العصر الذي عاش فيه، وجعل غاية حياته تمتزج مع غاية التاريخ التي تتحدّد "بالكشف عن القدوة الحسنة وتجنب المزالق والاعتبار

(٣٢) السابق، ص٣٥١-٣٦٥.

(٣٣) **الترجمة الشخصية**، يحيى عبدالدايم، ص٩٣.

بأخطاء الماضي"[٣٤]، ولكنها تفارق التاريخ من حيث بناؤها الكامل.

فابن خلدون بنى سيرته متتبعًا مراحل حياته نابضة بالحياة، محاولاً إعادة مسيرته الأولى، فزاوج بين حقائق التاريخ، والبراعة في التنسيق والبناء والوحدة.

ولعل دوافع الكتابة لدى ابن خلدون هي التي منحت سيرته الوحدة، ونفخت فيها الحياة بالقدر الذي رسمت فيه طريقة سرد الأحداث، وطريقة تقديمها التي لا نعدم فيها وجهة النظر الشخصية للرؤية الذاتية، فسيرته سيرة رجل البلاط الباحث عن الوجه الآخر لشخصيته، وهذا ما يفسر تطابق الصورة المرسومة في ذهنه مع شخصيته مع الحركة والحدث.

لقد اعتمد ابن خلدون التشكيل الطولي لسيرته، الذي هو أقرب التشكيلات إلى البناء العضوي المتماسك، فرتب الأحداث معتمدًا التتابع الحدثي متقدمًا في الزمن. من بداية الكتاب إلى نهايته، عارضًا حياته في انتظامها الزمني.

وقد آثرنا تقسيم حياته إلى مراحل وفق مجموعة من الموضوعات التاريخية التي أحاطت به، ووزعنا عليها مادته السردية ـ على الرغم من أن السيرة خلت من الأبواب والفصول ـ وعددنا كل مرحلة نقطة تحول في حياته، فالمرحلة الأولى: تبدأ بولادته في تونس عام اثنين وثلاثين

(٣٤) **فن السيرة**، إحسان عباس، ص١١.

وسبعمائة للهجرة، حيث ربي ودرج في حجر والده إلى أن أيفع، ثم عهد به إلى أساتذة أجلاء، سُعد بصحبتهم زمنًا طويلاً، "إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان والصدور وجميع المشيخة"[٣٥]. وبانتهاء مرحلة الإعداد، تبدأ مرحلة جديدة يحددها بقوله: "إلى أن شدوت ... استدعاني أبو محمد ابن تافراكين.. إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحق (٧٥٢هـ)"[٣٦]. إلى أن لحق بولاء السلطان أبي عنان في فاس، وكان شابًا آنئذ على حد قوله: "كنت شابًا لم يطر شاربي"[٣٧]، وتقاذفته الأمواج زمنًا، فتتقل من بلد إلى آخر إلى أن زُجَّ بالسجن. وهو يمخض ذاكرته هنا، ويحدثنا عن هذه المرحلة، "وكانت قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحدين مداخلة أحكمها ما كان لسلفي في دولتهم، وغفلت عن التحفظ في مثل ذلك من غيرة السلطان، فما هو إلا أن شغل بوجعه حتى أنمى إليه بعض الغواة، أن صاحب بجاية معتمل في الفرار ليسترجع بلده، وبها يومئذ وزيره الكبير عبدالله بن علي، فانبعث السلطان لذلك، وبادر بالقبض عليه، وكان فيما أنمي إليه، أني داخلته في ذلك، فقبض علي وامتحنني وحبسني"[٣٨].

ومهما يكن من أمر هذه التهمة التي قادته إلى السجن والتي ترجع إلى غفلته عما يمكن أن تؤدي إليه مداخلة الأمير

(٣٥) **التعريف بابن خلدون**، ص٥٥.

(٣٦) السابق، ص٥٥.

(٣٧) السابق، ص٥٨.

(٣٨) السابق، ص٦٦-٦٧.

في مثل تلك الظروف من إعانة خصومه عليه والتمكين لهم منه، مستجيبًا لدوافعه النفسية، ونوازع الحنين التي جعلت تناوشه، فإنها تمثل منعطفًا في حياته، وترسم ملامح تطور شخصيته مع تصاعد الأحداث عبر رحلة الحياة.

إن رحلة السجن مريرة لا يتردد فيها إلا حديث النفس والاستسلام للخواطر يسترسل معها، يراجع الأحداث التي مرت به، ويتأملها، ويحاول النفاذ إلى بواطنها، ومن ثم تحليلها، والربط بينها، فأخذت العوامل المختلفة تلتقي، وتتلاقح في نفسه، لتؤسس لمرحلة جديدة متميزة.

لقد خرج من السجن شخصًا اختلطت في باطنه الأمور، فهو موزع النفس بين دنيا السياسة وحياة العلم، لا يدري في أي المسارين يسير إلى أن تهيأ له من الظروف ما قاده إلى قلعة ابن سلامة (٧٧٦ – ٧٧٩هـ).

تبدأ المرحلة الثالثة من حياته باعتزاله الحياة في تلك القلعة متخليًا عن الشواغل بعد أن أرهقته الحياة السياسية بارتفاع مدها وتقلباتها، فانقطع للبحث أربعة أعوام، بعد أن أنضجت محنة السجن أفكاره، فتأمل في كيفية قيام الدولة، وأصل البيوت الحاكمة، فألف قسمًا كبيرًا من تاريخه العام. كما وضع المقدمة.

وفي ختام الأعوام الأربعة التي قضاها في تلك القلعة، عاد إلى تونس مدعوًا من قبل أميرها، آملاً أن يجد الهدوء، لكنه ما لبث أن التمس السماح له بالسفر إلى مكة، وفي الحقيقة كان يريد أن يظفر ببعض الهدوء، فوصل إلى القاهرة عام

أربعة وثمانين وسبعمائة، معاودًا سيرته الأولى، من تأليب الخصوم والعزل والتولية، إلى أن أتى الشام مع رجال الدولة لمقابلة تيمورلنك عام ثلاثة وثمانمائة، ثم عاد إلى القاهرة واستأنف حياته إلى أن توفي عام ثمان وثمانمائة للهجرة.

إن ابن خلدون يحدد معالم تطور شخصيته، فهو في طور الشباب يخطئ، وفي سيرته هذه يعتذر عن أخطائه التي ارتكبها يومها، لأنه كان طري العود لمّا يخبر الحياة بعد(٣٩)، ويكشف تتابع تحول مسار شخصيته من الصلابة في أيام القضاء، وتمسكه التام بما يعتقد أنه العدل والحق رغم أنف الخصوم، فهو يقول: "فصدعت في ذلك بالحق، وكبحتُ أعنة الهوى والجهل، وردَدتهم على أعقابهم..."(٤٠)، مبديًا صلابته، وانحدارها إلى الاستسلام والانقياد في لقاء تيمورلنك، وموقفه هذا "من أدل المواقف على نفسيته في عهد الشيخوخة وحرصه على السلامة"(٤١). وبين هذه الصورة وتلك ترتسم مفارقة واضحة لروحه المغامرة قبل ذلك.

نخلص إلى القول إن بناء السيرة الذاتية عند ابن خلدون يتصل بدوافعه الذاتية ووجهة نظره من جهة، ومع أسلوبه في تركيب الحدث وردة فعله عليه من جهة أخرى، فقد نجح في إدارة الأحداث التي جعلها سببًا في تغيير مساره بما يتناسب والموقف الذي يريد أن يتخذه بعد أن يكون قد هيأ المتلقي

(٣٩) السابق، ص٥٨.

(٤٠) السابق، ص٢٥٧-٢٥٨.

(٤١) **فن السيرة**، إحسان عباس، ص١٣٤.

لقبول التحول والتبدل في شخصيته، ليتعاطف معه، ثم يصور نفسه على أعتاب موقف جديد، فيبدأ بقطع الصلة مع الماضي، ويدلف إلى موقف جديد، ونستطيع أن نمثل ذلك بحركة متتابعة:

مؤامرة (سعاية أو وشاية) ـــ> غضب السلطان ـــ> السجن أو العزل ـــ> التحول إلى أحد جانبي مسار حياته (العلم أو السياسة).

فهو لا يكاد ينهمك في السياسة مدة من الزمن حتى يحاول اعتزالها، ليشتغل في طلب العلم،... وهكذا، ولعل تحوله هذا لم يكن برمته نتاج صنيعة أو وقيعة، بل الأمر يتعلق بابن خلدون نفسه الذي كان واقعًا تحت نزعة متأصلة في نفسه، تدفعه إلى الوصول إلى منافعه ومقاصده بأية وسيلة اتفقت، وهذا سر تنكر الناس له، وعزله عدة مرات[٤٢]. والحقيقة أن ابن خلدون كان أسير نزعتين متضادتين "تنازعتا السيطرة على تلك النفسية مدة طويلة... دون أن تستطيع الواحدة منهما القضاء على الأخرى قضاء مبرمًا"[٤٣]، ونقصد بهما نزعة السياسة ونزعة العلم، ونتج عن نزاعهما صراع نفسي عميق، كان يعصف به أحيانًا، فينغّص عليه عيشه، ويربك تفكيره، ولكنه جمع بينهما مرة في حياته، فقد ذكر هو عن نفسه أنه حين تولى الحجابة

---

(٤٢) السابق، ص١٣٣.

(٤٣) **دراسات عن مقدمة ابن خلدون**، ساطع الحصري، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٧م، ص٤٩-٥٠.

لأمير (بجاية) كان يعمل في تدبير الملك صباحًا، ثم يذهب إلى جامع القصبة بعدئذ ليدرّس فيه في أثناء النهار[٤٤].

هذه السيرة المزدوجة بين العلم والسياسة تكشف عن صراع كان يعانيه، عمقه وأذكاه تأثره بنوازع أساتذته التي كانت متناقضة أحيانًا[٤٥]، وهذا ما يفسر الصراع النفسي بين المثالية والواقعية لديه.

وربما كانت رواسب هذه النزاعات راسخة في نفس ابن خلدون حين تحدث في مقدمته عن التناقض بين العلم والسياسة، وبين الواقع والمثال في باب "في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها"[٤٦].

وهذا الصراع لم يتجلَّ واضحًا، لأن ابن خلدون جعله ردة فعل على حدث، فهو إن عزل من منصب سياسي يتحول إلى العلم، وبالعكس، وقد عُدّ هذا استسلامًا يطبع السير الذاتية العربية عامة "حتى عند أصلب شخصياته وأشدها تمرسًا بالمصاعب، وهي طبيعة يمثلها ابن خلدون نفسه على صلابة عوده، لأنه إذا واجه المشكلة تنحى عنها لتمر، أو اختار الهجرة لئلا يضعف إزاءها..."[٤٧].

ونحن نرجح أن ردة فعل ابن خلدون وتنقله من العلم والسياسة نوع من الصراع وإن لم تتخذ ردة فعله سمة

(٤٤) **التعريف بابن خلدون**، ص٩٨.

(٤٥) مثل الآبلي وعبدالمهيمن، ص٢٠-٢٥ من التعريف.

(٤٦) **المقدمة**، ابن خلدون، تحقيق: علي عبدالواحد وافي، ط٣، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت، ٢/ ١٢٥٥.

(٤٧) **فن السيرة**، إحسان عباس، ص١٢٠.

الرفض، علاوة على أنه عندما كتب سيرته نظر إلى الأحداث التي شكلت مفاصل حياته نظرة سارد للأحداث، وليس نظرة الشخصية موضوع السرد، فجسّم أحزانه ومحنه، وصنع منها تمثالاً أخذ ينظر إليه كحدث مضى وانتهى، ومما يدعم هذا الرأي أنه كان يقطع صلته بالماضي عندما تحل محنة، ويستأنف حياته مبدلاً مسعاه إلى ما يظن فيه سلوة له، فهو عندما هلك شيوخه وأبواه، ترك العلم وعمل في السياسة(٤٨)، وعندما خلي سبيله بعد محنة السجن، آثر التخلي والانقطاع للعلم(٤٩)، أما عندما ألمت به المحن وكثر الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين أهل الدولة في مصر، وغرق أهله، فإن مصيبته هذه كانت أكبر من أن تعالج بالإكباب على الدرس أو السياسة، فعقد النية على الحج وبدأ مرحلة جديدة في حياته(٥٠).

هذا يفضي بنا إلى القول إن ابن خلدون لم يكن حاسمًا في حياته، بل اتخذ موقف الوسط المتأرجح بين حالين، وقد عبر عن ذلك بقوله: "وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النصيح حين استشرته، خشية من تكبر السلطان وسخطه، فوقفت بين الورد والصّدر، وعلى صراط الرجاء واليأس"(٥١).

---

(٤٨) **التعريف بابن خلدون**، ص٥٥.

(٤٩) السابق، ص٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٤.

(٥٠) السابق، ص٢٦٠-٢٦١.

(٥١) السابق، ص٢٥٩.

### ب - إنشائية السيرة الذاتية:

ذكرنا فيما سلف أن ابن خلدون كتب سيرته لقرائه ومعاصريه معتذرًا ومسوغًا ومدافعًا عن ذاته إزاء ما اتهم به، فكان ساردًا للأحداث، يتحدث عن تجربته التي عاشها بضمير المتكلم المفرد والجمع معًا، فثمة تطابق بين السارد والشخصية موضوع السرد، فهو يروي الحدث الذي عاشه الذي كان شاهدًا عليه، أما الحدث الذي لم يكن شاهدًا عليه، فيستعين بسارد آخر يحدده بالاسم أو يذكر مصدره، كقوله: "قال ابن حزم"[٥٢]، "قال ابن حيان"[٥٣]، "أخبرني محمد بن منصور"[٥٤]. لذلك نقول بتعدد المقامات السردية في سيرته، ويمكن أن ندرج الرسائل المتبادلة بينه وبين ابن الخطيب بين تلك المقامات السردية الصريحة، لأن الأحداث التي ترويها تبتعد عن حياته الخاصة؛ إذ إنه بحاجة إلى روايات ثانوية ليضيء ما خفي من شخصيته.

إن ما تضمنته سيرة ابن خلدون الذاتية من مقامات سردية متعددة في بدايتها على وجه الخصوص، وهي مقامات صريحة، يفضي بنا إلى البحث عن زمن المقام السردي لديه، فقد أشار إليه بعبارة (الآن) كقوله: "ولم يحضرني الآن شيء منه"[٥٥]، وهي عبارة زمنية تشير إلى اللحظة التي كان فيها المؤلف يصوغ سيرته الذاتية (زمن

(٥٢) السابق، ص٣.

(٥٣) السابق، ص٥.

(٥٤) السابق، ص١٤.

(٥٥) السابق، ص٧٦.

الكتابة)، ويحدد طبيعة مقام الكتابة والسرد، فقد كتب ابن خلدون سيرته بعد أن فرغ من المقدمة والتاريخ، وطبقت شهرته الآفاق، وناله من الكيد والحسد ما ناله، مما يدل على أن المقام الكتابي محكوم بالظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية للقرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فكتابته محكومة بالزمان، بالإضافة إلى المكان والظروف الحافة بهما.

لقد كتب ابن خلدون سيرته في ديار الغربة عام سبعة وتسعين وسبعمئة وامتدت إلى قبيل وفاته، فاستحضر وطنه والأحداث التي عاشها فيه، وأبحر عبر الزمان والمكان وسجل ما أسعفته به الذاكرة من زمن ولادته إلى قبيل وفاته، هذا يوضح أن زمن الأحداث مباين لزمن الكتابة - تباين الحاضر والماضي الممتد في الزمان -؛ لأن السرد لاحق للمقام وغير متزامن معه. لذا فهو يروي بوساطة الزمن الماضي، فكثر الفعل (كان) الذي لا تكاد صفحة واحدة من سيرته تخلو منه، وإذا لجأ إلى الفعل المضارع استخدمه في سياق يدل فيه على الزمن الماضي، كأن يأتي به مسبوقًا (بلم)، ولم يقلل استخدامه الفعل الماضي في هذه السيرة من مقدرة القارئ على التماهي مع أحداث السيرة، لأنها تعد جزءًا من بنيان التاريخ العام الذي ينتمي إليه.

وهذه العودة إلى الماضي تعني ترتيب الأحداث في انتظامها الزمني، وقد وزع مادته السردية على أساس مكاني يتسق مع رحلاته وتنقلاته من مكان إلى آخر، ومن بلاط إلى

بلاط عبر الزمن، لكن التتابع الخطي للزمن يتكسر، فثمة مفارقات تهشم الزمن وقوامها الاستطرادات، من مثل حديثه عن شيخه الآبلي(٥٦) الذي يطول، فالفكرة تستدعي الفكرة، والحدث يجذب الحدث، رغم الفواصل الزمنية التي تفصل بين هذه الفكرة وتلك، وبين هذا الحدث وذاك، فابن خلدون يسرد حياة الآبلي، وعبدالمهيمن، ويذكر الأخبار المتصلة بحياتهما - على سبيل المثال - إلى وفاتهما، فينقطع الزمن، ويتجاوز تراتب الأحداث، لكنه يعود ليصل ما كان قد انقطع. وقد شعر ابن خلدون نفسه بعبء هذا الاستطراد فقال: "هذا ذكر من حضرنا من جملة السلطان أبي الحسن، من أشياخنا وأصحابنا، وليس موضوع الكتاب الإحاطة، فلنقتصر على هذا القدر، ولنرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المؤلف"(٥٧).

إن ابن خلدون، على الرغم من هذه الاستطرادات، يحترم التعاقب الزمني، احترامًا كليًا متأثرًا بنزعته التاريخية، والمفارقة الزمنية لا تظهر إلا في مستوى العلاقة بين زمن الأحداث وزمن المقام السردي وزمن الأحداث المروية، لذلك نقول إن السرد في هذه السيرة استرجاعي، وما رواه عن سلفه - في التعريف - من أحداث ما هي إلا أحداث استرجاعية، من مثل الحكايات التي رواها عن حُجر بن عدي الكندي(٥٨)، وهي أحداث لم يعشها وإنما رويت له، ويرمي منها إلى تقصي جذور أسرته ليستكمل حياته الكلية، إذ لا

(٥٦) السابق، ص٣٣- ١٤٠.

(٥٧) السابق، ص٧٦، وتكررت هذه العبارة ص١٤٠.

(٥٨) السابق، ص٣.

معنى لحياته من دون ذكر هؤلاء؛ ليؤكد أصالته، وليثبت ذاته، وكذلك فيما يخص الاستباقات، فهو يشير إلى أحداث لاحقة لأنه يعلم ما وقع قبل لحظة الكتابة وبعدها، فعندما يقول: "ثم كانت واقعة العرب على السلطان بالقيروان، في فاتحة تسع وأربعين فشغلوا عن ذلك، ولم يظفر هذا الرحوي بطلبته، ثم جاء الطاعون الجارف، فطوى البساط بما فيه، وهلك عبدالمهيمن فيمن هلك"(٥٩). ويعود ليسرد الأحداث التي تعاقبت بعد واقعة القيروان بالتفصيل، فهو يستبق حدثًا، يكون محور حديثه اللاحق، من باب التذكير ببعض الأحداث المهمة، ويكون في شكل تلميحات تهيئ القارئ نفسيًا وتجعله ينتظر تفاصيلها في حينها.

إن السرد في السيرة الذاتية لدى ابن خلدون، يشخص أحداثًا حقيقية، تتطابق مع ما عرف من تاريخ تلك البلاد في ذلك العصر، لكنه لم يرم إلى قول الحقيقة مجردة، فهو لا يروي الحدث الذي عاشه بقدر ما يروي رؤيته الشخصية لهذا الحدث، وذلك بعرضه على النقد الذاتي بما ينسجم ومآربه. فهو لم يستطع أن يتخلص من الحاضر الذي يكتب فيه، ليلتحم بالماضي الذي يرويه .

إن ابن خلدون عندما يروي سيرته يشخصها ويمنحها دلالات عن طريق اللغة، إنه يروي أحداثًا وأقوالاً وأفكارًا بمنطق الحاضر ومتطلباته وبما تسعفه الذاكرة(٦٠)، "والذاكرة

(٥٩) السابق، ص٢٧.

(٦٠) السابق، ص٦٧، ٧٦، ١٤٠، ٣٠٩.

قلب خؤون"[٦١] كما يقال، فهو قد دوّن سيرته بعد أن كتب تاريخه، واستند إلى أحداث تاريخية واقعية من تاريخه، وأوجد علاقة بين الحدث ومسبباته ونتائجه، وأعاد بناءه، ليصل إلى نتيجة كانت غائبة زمن وقوع الحدث، ويعلل لهذا بالقول: "وكنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت فيه"[٦٢].

ولا تخلو سيرته من الخطاب المنقول المباشر الذي لجأ إليه على حساب السرد عند لقائه بتيمورلنك، ليمنح سيرته الواقعية والصدق. والحق أن ابن خلدون التقى بتيمورلنك في أواخر سني حياته، فكانت المدة قريبة من لحظة الكتابة، وهذا قمين بحسن التذكر، لذلك حافظت الكلمات على نبضها.

ونرجح أن ابن خلدون لجأ إلى الحوار في هذا اللقاء لأسباب تلخصها وجهة نظره العامة التي تحرك الأحداث، فهو قد التقى تيمورلنك، وهو أحد الغزاة، فأراد أن يسوّغ هذا اللقاء ويضفي عليه بعض الشرعية من جهة، وأن يوهمنا أن هذا هو فحوى حديثه معه بالحرف من جهة أخرى، فهو يقول: "سألني من أين جئت من المغرب؟ ولم؟ فقلت: جئت من بلادي لقضاء الغرض، فقال لي: وما فعل معك؟ قلت: كل خير"[٦٣].

يوحي هذا الحوار أن ابن خلدون كان شاهدًا على الحوار، ومن ثم فهو الذي صاغ كلام تيمورلنك نظريًا. والحقيقة أن قوة شخصيته وثقته بنفسه أثمرتا هذا اللقاء، ثم إن اللقاء

(٦١) **السيرة الذاتية**، جورج ماي، ص٩٤.

(٦٢) السابق، ص٧٧.

(٦٣) **التعريف بابن خلدون**، ص٣٦٩-٣٧٢.

يعمق ملامح سير شخصيته وتطورها في النهاية، واختياره الاستسلام والانقياد.

أما تقنية الرؤية فنحن إزاء رؤية، تكون في مستوى محدد، ثم تتسع فهو عندما كان شابًا لم يقدر الأمور حق قدرها، إذ إنه يكرر دائمًا "غفلت من التحفظ"(٦٤)، أو "كنت شابًا"(٦٥).

وعطفًا على دوافع الكتابة لديه التي تحدد بناء السيرة من منطلق فكري واضح، نقول عن خطاب السارد هو خطاب تفسير وتسويغ، إنه خطاب فكري، إذ اتّخذت السيرة صبغة سياسية واضحة، فابن خلدون يعيد قراءة حياته السياسية من موقعه الفكري والسياسي من منطلق اللحظة الراهنة ـ لحظة الكتابة ـ بعد أن اكتسب وعيًا غير الوعي الذي كان في مرحلة الشباب، وامتلك ثقافة من خلال ما مر به، لم يكن يمتلكها قبل، لذلك اختلفت رؤية السارد عن رؤية الشخصية موضوع السرد، فهو بعد أن خلا بنفسه في قلعة ابن سلامة، وتوافرت له أسباب التخلي عن الشواغل، جمع أشتات فكره وتأمل ماضي أيامه، وراجع الأحداث التي مر بها منذ خروجه من موطنه تونس، فطفق يبحث عن العلل والأسباب ليصل إلى النتائج والقوانين للحياة السياسية والاجتماعية.

كما اعتمد ابن خلدون على الوصف التعبيري الذي يتناول وقع الشيء والإحساس الذي يثيره هذا الشيء في نفس من يتلقاه، لذلك كانت له وظيفة تفسيرية، وإيهامية، ويتجلى هذا في وصف

(٦٤) السابق، ص٦٧.

(٦٥) السابق، ص٧٧.

القاهرة[٦٦]، فالوصف عنصر أساسي لديه، لكنه اتخذ وظيفة سردية خاصة، فكان خادمًا للسرد، وهذا التداخل بين الوصف والسرد والصورة السردية أضفى الحركة على مجمل الصورة.

وهاكم أمثلة توضح هذه الفكرة، يقول ابن خلدون: "ثم جاء الطاعون الجارف، فطوى البساط بما فيه"، فقد أوحى بصورة الموت تدب دبيبًا في المكان وتعصف بكل شيء فيه. ويقول:" ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خيلوا للوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان، واشتماله علي، وحركوا له جواد الغيرة"[٦٧].

وهذه الصورة السردية لحمة السيرة الذاتية لدى ابن خلدون وسداها في المواقف الحاسمة التي تشكل تحولاً في حياته، ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات سيرته الذاتية من تلك الصور التي تعتمد أساسًا على الفعل. مما يدل على أن الصياغة لديه كفاح متصل مع متطلبات المعنى والإحساس.

ولابد من وقفة مع أشعاره التي نثرها في ثنايا الكتاب والتي قيل عنها إنها استطرادات، قطعت أوصال السرد، نقول: إن أشعاره جزء من داخله الذي جهد في إخفائه خجلاً من صفات علقت بنفسه، مع أنه ليس من قالة الشعر، وإنما ممن دفعه الطموح لبلوغ سدة العلا إلى تدافع المناكب أمام أبواب السلاطين، واسترضائهم، وخطب ودهم، فكان شعره رحلة إلى أبوابهم يستعطفهم.

(٦٦) السابق، ص٢٤٦.

(٦٧) السابق، ص٩١.

إن صوته في قصائده يرشح ضعةً وضعفًا، ويمتد هادئًا هدوء التملق والزلف، ويسري في ثاياه ألم الإحباط، لقد جعل قصائده جسرًا للانتقال إلى ضفة الأمان؛ ليتخلص من ربقة السجن تارة، أو خيبة الأمل تارة أخرى، ولتحقيق حاجة مقيمة في النفس.

وقد حاول أن يجعل باب الاستعطاف والتهنئة ينبوعًا تتفرع منه جداول صغيرة، تسيل بمواجع النفس وأحزان القلب المتفجرة من عناء الارتحال والغربة وخيبة الأمل. ولكن لا تلبث الأحزان أن تغور في الجذور التي رأب صدعها السلطان.

وعلى هذا يكون الشعر لديه موردًا يرده كلما لذعه صقيع اليأس، وأوصدت أبواب السلطان في وجهه، فأطلقه صرخة اتخذت تهنئته المزجاة إلى السلطان مركبًا للوصول إليه، لذلك لم يستطيع أن يخلص في تهنئته، فندّت عن شفتيه صيحات، تدافعت فيها آمال السلطة والمجد والرفعة. ولو حاولنا أن نجمل معاني تلك الأشعار لما خرجت عما قلناه، فقد تكررت فيها ألفاظ الضعف والضّعة، والسعاية والوشاية، والعتاب والحنين إلى الماضي والمدح والشكر والامتنان(٦٨)، وهو ما يوضح الخط العام لسير حياته.

هذه هي صفحات مطوية من سيرة ابن خلدون الذاتية، التي بدا فيها حريصًا على تسجيل تفاصيل ما جرى له بدقة المؤرخ الأمين الحريص على الاستيعاب والشمول.

(٦٨) السابق، ص٦٧، ٧٩، ٢٣٣-٢٤٤.

## خاتمة:

إن كتاب "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا" سيرة ذاتية، تكشفت أبعادها منذ الصفحة الأولى عندما أعلن الميثاق السير الذاتي، فهو يروي بضمير المتكلم تفاصيل حياته، فقد كان من ذوي الشهرة، اضطلع بمسؤوليات جسيمة في عصره، وأسس لكثير من العلوم، لم ينل ما كان يطمح إليه من المجد، فأعاد النظر في حياته، وأدار الأحداث بما يخدم غرضه، وهو الدفاع عن الذات في وجه الخصوم، فسوّغ الأحداث بما يتفق والمنطق السائد آنذاك الذي يحدد مفهوم الخيانة في نطاق الدين.

وربما كان نص "التعريف" هو النص التأسيسي الأول لفن السيرة عند العرب (بما هو فن)، على الرغم من أنه سبق إلى هذا الفن إلا أنه أول الذين أفردوا كتابًا خاصًا لسيرهم الشخصية، استعرض فيه حياته الكلية في بناء محكم، تتوالى فيه الأحداث والوقائع، وتتطور، فركز على الحياة الفردية وعلى التاريخ الكلي والجزئي للشخصية، وربط ذلك بالحياة العامة الذي كان مشاركًا فيها وشاهدًا عليها، وعني بعنصري الزمان والمكان، وكشف عن أسماء الشخصيات، ورسم ملامح سلوكها، الذي نستدل منها على السمات المميزة لصاحبها من خلال تفاعلها بالأحداث، وتعاملها مع الأشخاص فقدم بذلك صورة حسية لحياته التي كانت صورة من صور العالم الإسلامي في القرن الثامن الهجري.

وتكشف طريقة البناء لدى ابن خلدون طريقة رواية الحدث، ودوافعه للكتابة، فقد عاش حياته ساعيًا وراء غايات

يزجيها طموح لا حدّ له، وفي مرحلة متأخرة نظر إلى تلك الحياة في عيون الآخرين فآلمه ما رأى، فأراد في إطلالته على تلك الحياة تفسير تلك الوقائع وتحليلها وتعليل موقفه منها، فازدوج الزمن لديه - زمن الكتابة وزمن التجربة - إنها لحظة تزامن فريدة أن يطل المؤلف على حياته الماضية من موقع حاضره.

إن ابن خلدون موجود داخل سيرته، يؤكده ما جرى على شخصيته من تعديل وتحوير، وفق الوعي المسلط في الحاضر على زمن الماضي، الذي تتمحور حوله السيرة في العادة.